

تأملات في شهر الصوم

قال الله تعالى:

((يا أيُّها الذين آمنوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ))
(البقرة/183)

هذه الآية الكريمة توصلنا عن طريق الصبر، وعن طريق الصوم إلى التقوى، اما إذا كان جائعاً ويكف عن الطعام (أي: الإنسان)، واما إذا كان عطشان ويكف عن شرب الماء، فهو في كلا الحالين ، أصبح في حالة صبر، لأنه يعاني المشقة؛ لذلك اهتم الإسلام بالعقل كثيراً، وعمل على تحريره من أي ضاغط، وعمل على كبح جماح النفس الإنسانية من ان تخضع للغرائز الشهوانية، والحيوانية حتى يبقى عقل الإنسان محرراً من كل شيء.

أطلق من الآية القرآنية الكريمة السابقة، والتي تشرّع وجوب الصوم، ولأن تشريع الصوم فيه قدر من المشقة على البعض؛ لذلك حفلت الآية القرآنية الكريمة بجملة إشارات : حيث نجد فيها الرعاية والاهتمام، وفيها الحنو على المسلمين الذين سيكونون معنيين بالصوم، فأول ما خاطبت به الآية:

((يا أيُّها الذين آمنوا))

وهذه الإشارة الرحيمة تخفف عليكم، من حيث أنكم تتميزون عن الآخرين، لا بانتمائكم الطبقي، ولا بانحداركم العشائري، ولا بمستوى مدخولكم الاقتصادي، وانما تتميزون بفضل إيمانكم.

كما ان الآية الكريمة وجهت الخطاب ب :

((يا أيُّها الذين آمنوا))

إلى مُطلق المؤمنين فقالت:

((كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ))

لأنه حكم بالوجوب:

((كما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ))

هذا التشريع (الصوم) ليس للمسلمين فقط ، وإنما سبق المسلمين أبناء الديانات الأخرى مثل : النصراني، وقبل النصراني اليهود، كذلك كان عليهم فريضة الصوم، بل أكثر من ذلك، فالصوم كفريضة اشتركت فيه مختلف الديانات، لذلك فإن الصوم مع اختلاف صيغته، شمل الكثير من أمم العالم، قبل الإسلام.

الآية القرآنية الكريمة إذن، تخفف من وقع هذه الفريضة على الإنسان المكلف:

((يا أيُّها الذين آمنوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ))

حيث تحاول الآية القرآنية الكريمة هنا ان تخفف من وطأة الصوم، بأنه ليس إلا أياماً ، وهذه الايام ليست على طول السنة:

((فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ))

لقد خففت الآية أكثر: إنه من كان مريضاً، ومن كان على سفر فلا يصوم، وإنما هناك أحكام أخرى للمريض، وأحكام أخرى للمسافر، وهذه الآية القرآنية الكريمة تسترعي عدة وقفات:

الوقفة الأولى:

ما المقصود بالصوم ؟

الصوم : هو الكفّ، مطلق الكفّ، أي : عندما يكفّ الإنسان عن شيء فقد صام . كما اخبرنا القرآن الكريم على لسان مريم (عليها السلام):
((إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً))

معناه: لا أتكلّم، وهذا صوم، أو يكفّ الإنسان عن الطعام، أو يكفّ عن شيء ما.
والصوم في اللغة هو: الكف. أما في الشريعة والفقه فهو: الامتناع عن المفطرات المعروفة من وقت الفجر إلى وقت المغرب وبالأحكام والمواصفات المعروفة، هذه هي الوقفة الأولى مع الصوم.

الوقفة الثانية:

قلنا إن الصوم يكون، عندما يكفّ الإنسان عن الأكل والشرب، والملذات الأخرى، من دون أذى ومشقة، أما إذا كان يكفّ عما سبق وهو في حالة أذى، عندئذ يتحول الصوم إلى (صبر) أي : عندما تكون هناك مشقة؛ ولذلك ترمز بعض الروايات الشريفة وحتى بعض الآيات القرآنية الكريمة - بحسب بعض التفسيرات: إن بعض الآيات ترمز الى الصوم والصبر في آن واحد كما في الآية:

((واستعينوا بالصبر والصلاة))

وفي آيتين من سورة البقرة، توجد إشارة إلى أن الصوم يمنح الإنسان الصبر.
فالإنسان الصائم يكون صائماً بمجرد أن يكف عن المفطرات، حيث يكف عن الماء وهو غير عطش، ويكف عن الطعام وهو غير جائع.
أما إذا كان جائعاً، ويكفّ عن الطعام، أو كان عطشاً ويكفّ عن شرب الماء؛ فهو إذن، أصبح في حالة (صبر)؛ لأنه يُعاني مشقة؛ وهنا يتحول الصوم إلى صبر؛ لذلك فإن الصوم يمنح الإنسان قدرة على الصبر، وهذا عطاء مهم جداً، حيث يتحلى الإنسان بحالة الصبر فيصبر.
يقول تعالى:

((يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون))

تريد الآية القرآنية الكريمة أن توصلنا عن طريق الصبر، أو عن طريق الصوم إلى التقوى، وعندما نقول: يصل الإنسان إلى التقوى أي: يصل إلى الذروة التي طالما تحدث القرآن الكريم عنها، كأعلى مقياس للتفاضل:

((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم))

فالتقوى من الوقاية. وفي اللغة العربية (وقى) أي: حفظ الشيء من أي أمر يفسده، واصطلاح في الفقه: أن التقوى حفظ الإنسان من كل إثم، أو من كل خطيئة؛ لذلك فالصوم يرتبط ارتباطاً مباشراً بحالة التقوى، التي هي أقصى ما يتحلى به الإنسان ، كما وعدتنا الآية القرآنية الكريمة، حيث جعلتها مقياساً للتفاضل.

ومادام الصوم قد ارتبط بالتقوى فيراد لنا إذن، وقفة على مسألة التقوى، فالتقوى: هي ملكة داخل الإنسان ، أخذت من كلمة (وقاية) ..حيث الإنسان يقي نفسه، ويقي قلبه ، ويتقي في كل شيء.

لكن ما علاقة التقوى بالصوم؟

في داخل الإنسان ثلاثة عناصر أساسية: عقل يفكر به، وإرادة يُحْكَمُها، وهناك شهوة وهوى وغرائز.

العقل المجرد، يرى الأمور كما هي.. يرى الشيء الصحيح صحيحاً، ويرى الخطأ خطأً، وهناك إلى جانب العقل، الشهوة والهوى، وإنما سُمِّي الهوى، هوى؛ لأنه يَهْوِي بالإنسان إلى السحيق، إلى الأسفل.

رغبات الإنسان وغرائزه، تحاول أن تأخذ به بعيداً عن جادة العقل. ولكن الذي يرجح إحدى الكفتين على الثانية هو: الإرادة. فالإنسان عندما يُحْكَمُ إرادته، وينأى بنفسه بعيداً عن الهوى باتجاه العقل، ينجو.

لذلك اهتم الإسلام بالعقل كثيراً، وعمل على تحريره من أي ضاغط .

لكن مالذي يحصل في الصوم؟

الذي يحصل في الصوم: أن الغرائز الطبيعية، والمشروعة التي تمارس عملها على مدار السنة، تتوقف في ساعات النهار على مدى شهر في السنة.. لا تستطيع (كإنسان) أن تأكل وهي شهوة، ولا تستطيع أن تشرب وهي شهوة، ولا تستطيع أن تمارس الملذات الأخرى وكلها شهوات.

عندئذ تجد أن الإرادة، تأخذ حصة من التقوية حيث تقوى على الشهوة، أفضل من أي وقت آخر.

من هنا يجد العقل نفسه غير خاضع للضغوط، والشهوات، والرغبات، وتجد الإرادة نفسها قوية، والإنسان يبدأ بقول ما يعتقد به، ويفعل ما يعتقد به. إذن، شهر رمضان المبارك أول ما يمنحه للإنسان، الرياضة الروحية التي تساعد بالضبط على الشهوات والملذات.

طبعاً، هذه الشهوات: منها ما هي حرام، سواء أ كانت في شهر رمضان، أم في غير شهر رمضان، ومنها ما هو حلال، ولكن في شهر رمضان المبارك تُعَدُّ هذه من المفطرات، فالإنسان الذي يقوى على أن يمتنع نفسه من الشهوات الحلال، فهو أقدر على أن يمتنع نفسه من الشهوات الحرام .

الشهوات الحرام كشراب الخمر، أو الزنى، وكثير من الأفعال المحرّمة، والتي حرّمتها الديانات جميعاً، لذلك، يجد الإنسان نفسه، في رياضة شهرية من كل عام، تستيقظ إرادته في ذلك الشهر، ويتحرر عقله من نير الشهوات.

هذه الرياضة السنوية من شأنها أن تعطي الإنسان حالة من القوة في الشخصية، ومن تحرر العقل من كل الضغوط العاطفية.

نعود مرة أخرى الى قضية (الصبر). الإنسان الذي لم يواجه تحديات قد ينهار، وانهياره لا يعني أن المشكلة كبيرة أو صغيرة، بل يعني : أن الجهاز الداخلي لم يُعَدِّدْ مقاومة، وهذا هو سبب الانهيار؛ لذلك من أكبر نِعَمِ الله (تبارك وتعالى) علينا: أنه مَنَحَنَا (ملكة الصبر)، وجعل الصبر قرينَ الإيمان.

فالإنسان المؤمن، يتزود من شهر رمضان المبارك بزيادة التقوى، ويزداد الصبر ليستطيع أن يواجه المشاكل بصبر.

بعض الأحيان تكون المشاكل غير قابلة للحل - يا سبحان الله - الإنسان في حالة دأب متواصل، وعندما يواجه مشكلة، يطير على أحد جناحيه: إما أن يحل المشكلة، أو لا. وبعض الأحيان المشكلة غير قابلة للحل، فما لم يكن هناك جهاز في داخله يحفظه من الانهيار، معنى ذلك: أن أي مشكلة غير قابلة للحل، ستذهب به أدراج الرياح.

كثير من الناس الذين لم يتحلوا بالصبر عندما واجهوا مشاكل معينة، وجدوا أنفسهم فوراً مواجهتهم للمشكلة، انهاروا، إما من مشكلة زوجية، أو بسبب فقدان عزيز معين، أو خسارة تجارية، أو فشل في الامتحان.. أو أي مشكلة من مشاكل الحياة.

الطموحات لا تتحقق دائماً، بعض الأحيان يستطيع الإنسان أن يحقق طموحاته، وبعض الأحيان لا يستطيع أن يحقق تلك الطموحات؛ لذلك السعداء، والذين وصلوا مسيرتهم في الحياة، هم ليسوا أولئك الناس الذين لا توجد في حياتهم مشاكل، بل هم الذين إما حلوا مشاكلهم، أو صبروا عليها.

عندما يمتلك الإنسان هذه القدرة أي: أنه يصبر. فبالنتيجة هناك مشاكل لا حل لها. ففقدان الأب مشكلة، ولا حل لها:

((إنك ميت وإنكم ميتون))

فقدان أي عزيز في حياة الإنسان مشكلة، هذه ستواجه الجميع؛ لأن هذا قانون من قوانين الحياة، والموت: حقيقة. والحقيقة لا تغير من نفسها شيئاً؛ فالإنسان يواجه فقدان عزيز، ويواجه خسارة مادية معينة... إلخ

ومالم يكن في الإنسان جهاز داخلي يضبط حركته، ويمنع انهياره، فإنه سيفشل في أول تجربة، ويتحول من تجربة فشل إلى فشل في الحياة.

هنا لابد من أن نميز بين الفشل في التجربة، والفشل في الحياة.. فالذين نجحوا في حياتهم لديهم محطات فشل كثيرة، فشل في المدرسة، وصنع للنجاح من خلاله، فشل في حالة صحية معينة، وتعطل عضو من أعضاء الجسم، مع استطاعة لشق طريق النجاح في الحياة من خلال هذا العضو الفاشل، فعضو فاشل في جسم الإنسان، لم يتحول إلى نقص في داخله.

المشكلة في الفشل: هو عندما يتحول مركز الفشل، من جزئية بسيطة في الخارج إلى الداخل، ويبدأ بنخر الإنسان من داخله.

لكن... كيف يتفوق الإنسان على هذه التحديات الخارجية، وكيف ينمي في داخله جهاز الصبر؟ جهاز الصبر: هو جهاز الكبح الداخلي، مقرون بالتقوى أي: من الوقاية. والصبر يجعل الإنسان في الحالة التالية، صحيح أن المشكلة غير قابلة للحل، ولكن أيضاً، هو (أي: الإنسان)، غير قابل للانهيار، وهذا سر القوة في الشخصية؛ لذلك نجد أن نبي الله داود (عليه السلام) وفي أتون المعركة وشدها، دعا الله (تبارك وتعالى) قائلاً:

((ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين))

اذن، الصبر أول ما يمنح للإنسان من هذا الثالوث، نزولاً إلى القلب:

((ربنا أفرغ علينا صبراً))

حيث تأخذ النفس حصة كافية من الطمأنينة، والثبات، وعدم التراجع، وبعد ذلك تنعكس على الجوارح وعلى الجسم:

((و ثبت أقدامنا))

وبعد ذلك:

((وانصرنا))

ثم تأتي الخطوة الثالثة، بالاستئناف والاستمرار، إذن، الصبر من العطاءات الأساسية في عبادة الصوم .. وهذا الصبر يقدمه الله

(تبارك وتعالى) على الصلاة وفي آيتين كريمتين من القرآن الكريم :

((واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين))

((واستعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين))

لقد قدم الله (سبحانه وتعالى) الصبر على الصلاة لماذا؟ من دون شك، الصلاة أفضل العبادات، فهي عمود الدين:

(إن قبِلت قبل ما سواها وإن رُدّت رد ما سواها).

فما الذي يجعل الصبر يتقدم على الصلاة؟ لأن الصبر مقرون بالتقوى، وهو ثمرة التقوى، ولا صلاة ولا عبادة بدون تقوى؛ ولذلك الصبر يتقدم على الصلاة، في آيتين في القرآن الكريم.

من هنا، كان الاهتمام بالصوم، علّنا نصل إلى ما وعدنا به الله (تبارك وتعالى)، فعن طريق الصوم، نصل إلى الثمرة الأساسية، وهي التقوى، وقرينة التقوى الصبر، فالإنسان بدون صبر، لا يستطيع أن يواجه مشاكل الحياة.

كما إن للصوم عطاءات كثيرة منها:

1- العطاء النفسي:

كيف تأخذ النفس حالة من الترويض والرياضة، ومواجهة الغرائز والشهوات، وكيف يستطيع الإنسان أن يكبح جماح شهواته المتعددة، ويسيطر على جوارحه، وعلى أعضاء جسمه. ليس الصوم فقط، أن تمتنع عن الأكل، وتمتنع عن الشرب، ولكنك تستبج الحرامات، وتغتاب وتتحدث بالبهتان، وتتهم الآخرين، وتتنظر الى الحرام، وتأكل الحرام، وتسمع الحرام، وما شاكل ذلك. يقول الحديث الشريف :

(من صام صامت جوارحه)

من ثم، نجد أن أمام الصائم مفطرات مادية معينة، لكن الى جانب هذه أيضا، يمتد الصائم بصومه إلى جوارحه. فهو يبدأ بمراقبة كلماته، ومراقبة لسانه، ومراقبة سمعه حتى لا يسمع الحرام، ومراقبة لسانه حتى لا يتكلم الحرام، ومراقبة بصره حتى لا يرى الحرام، ومراقبة بقية جوارحه.

إذن، الفائدة الثانية هي السيطرة على الجوارح، وجعل الجوارح في حالة رياضة، وإخضاعها لإرادة الصائم، ولعقل الصائم بما ينسجم مع أخلاقية الصوم، إضافة الى ذلك أن الصائم يبدأ يحس وهو في حالة الجوع، وبهذا انتقلنا الى الجانب الاجتماعي من أن هناك ملايين من الناس، يعيشون حالة الجوع ليس بنية الصوم، وليس في شهر رمضان بل على مدار السنة. إذن، هذا الثري الذي يملك من المال، ومن الطعام، بدأ في كل سنة، شهراً كاملاً، يواسي الناس الفقراء، ويحس إحساسهم، ويكتوي بنار الجوع، ولو لبعض الوقت؛ حتى ينتقل هذا الشعور من داخله الى الخارج، علّه يسهم بدعم مسيرة الناس الفقراء، وتحسين حالتهم المعيشية.

هذا البعد الاجتماعي شيء رائع جداً، إذن، الصبر والصوم يعطيان الإنسان الصائم حصة كافية من الإحساس بما يدور لدى الآخرين. مرة أخرى فإن للصبر قيمة اجتماعية كبيرة، وهذا عطاء آخر، أي: إن الأمة الصابرة لا تتدحر.

إن الحضارات في تاريخ الأمم والشعوب، حضارات متعددة، وما من أمة من الأمم إلا وحُوصِرَت بالشرق والغرب.. فالحروب، والأزمات، وموجات الأوبئة والأمراض قد أحاطت بها..

كلها تشير إلى وجود حالة من المشاكل والابتلاءات، لا تقوى تلك الأمم على مواجهتها، وما لم تواجه هذه الأمم حالات الحصار، والحروب، والأزمات، والأوبئة بقدر من الصبر الداخلي، فستبدأ بالانهيار والانعطاف.

لذلك انهارت كثير من القيم، والأمم، والأنظمة الاجتماعية السياسية، بسبب بعض الحروب التي حصلت، لأن تلك الأمم لم تكن فقط، لا تمتلك مبررات النجاح والتفوق والفوز على الخصم، ولكنها لا تمتلك أيضاً مبررات الثبات في داخلها.

فلو طبقنا ذلك على العراق، في فترة طويلة من الزمن، سلسلة حكومات تعاقبت على حكم العراق، 35 سنة، فترة الحكم الأخير، والذي جثم فيه صدام على صدر العراق الحبيب من عام 1968 إلى 2003.

لقد تحلى الشعب العراقي، بدرجة عالية من الصبر، لم تكن شعوب العالم قد واجهت مثل هذا التحدي، وبهذه الفترة الطويلة من الزمن، بقي صدام مستمراً، واستطاع ان يبقى فترة طويلة، وأن يمسك بزمام الأمور، وان يمسك بأعصاب الدولة كلها بيده : أجهزة المخابرات، الاقتصاد، القضاء، الإعلام، السياسة، وكل شيء.

لقد كان الشعب العراقي من جانب يواجهه، ومن جانب يصبر ولا يتراجع، يبقى في محله لا يتراجع الى الخلف، وهذه الحالة ان نمت على شيء، فإنما تنم عن وجود ثروة معنوية، وأخلاقية عالية لدى المواطن، ولدى الشعب، بحيث جعلته ثابتاً حتى هذه اللحظة، صحيح، أن صدام قد سقط، ولكن هناك تحديات قد تأخذ بعض الوقت إلى أن تختفي، من حياة المواطن العراقي .

وهنا مطلوب أن نتحرك على صعيدين:

الأول: حل المشاكل بكل الطرق القانونية المشروعة، وتوظيف كل ما لدينا من طاقات، من أجل السيطرة على التحديات الموجودة، والعمل على تجاوز الحالة الإرهابية، وتوفير إمكانات استتباب الأمن، و توفير الخدمات لحل الكثير من القضايا المعقدة.

الثاني: إلى جانب هذا، في الوقت الذي يجب ان ندأب فيه ليل نهار، ونعمل بكل ما أوتينا من قوة من أجل تذليل هذه العقبات، علينا أن نتحلى بالصبر، لأن الصبر سر يجعل الإنسان يتحرك، ليس من موقع السأم، بل يواصل الحركة من أجل تحقيق الأهداف، وما لم تكن له حصة كافية من الصبر في داخله سيقف. والذي يواصل الطريق الى نهايته هو الذي يصبر.

عندما تكون هناك تحديات تتطلب التوقف يتوقف، ولكنه لا يتراجع إلى الخلف، بل يبقى يواصل مسيرته، حتى يصل إلى الهدف المطلوب والمنشود.

إذن، الصبر أيضاً عطاء، وعطاء رائع جداً، يجعل الأمة الصابرة قادرة على أن تتحدى، هناك في بعض الأحيان، بل في كثير من الأحيان تفاوت عند الأمم في إمكاناتها العسكرية،

والاقتصادية، والإعلامية، فالأمة الحيّة، قد لا تتوافر لها في ظروف معينة قدرة عسكرية، أو مالية، أو اقتصادية، ولكنها تريد أن تواصل، وان تبني نفسها، وأن ترتقي على سُلّم المجد، مع وجود تحديات كبيرة.

فكيف يتم ذلك؟

يتم ذلك، إذا استطاعت هذه الأمة أن تتواصل بالمسيرة من جانب، ومن جانب آخر إذا استطاعت أيضاً، أن تصمد و تصبر أمام التحديات ولا تتراجع، - سبحان الله - ما من أمة صبرت إلا ظفرت، وحققت ما تريد .

2- عطاء الصبر:

وهو، أن هذه الأمة يجب ان تتحلى بروحية الصبر، وليس الصبر بمعنى التكاثر، وبمعنى التراجع، وبمعنى الانكفاء، وإنما الصبر بمعنى الوجود بالميدان .. فالصابر لا يعني المنكفي، والمتراجع، والخائف.

الصابر: هو الذي يواصل التقدم لسبب أو لآخر .. نعم، هناك عقبات أمامه، قد لا يستطيع دفعها، او درءها، او إزالتها عن الطريق، فيقف اثرها في محله، وينتظر الوقت المناسب، ثم يستأنف حركته مرة أخرى، وهذه قوة.

هذه العطاءات، تأتينا من شهر رمضان المبارك .. في شهر رمضان المبارك أيضاً هناك عطاءات أخرى، عطاءات كثيرة، والإنسان عادة عندما يتوجه الى الله (تبارك وتعالى) وهو صائم، فاضافة الى البعد الروحي، وما أعدّ الله (تبارك وتعالى) للصائمين، تصادفه في بعض الاحيان عوائق، تحول دون تقربه من الله.

لكن في شهر رمضان المبارك تكون الغرائز قد هدأت، والإرادة قوية، والعقل تفتح، لذلك يتجه الإنسان بمختلف أنواع الدعاء. والله (عز وجلّ) جعل أبواب السماء مفتوحة لاستقبال الدعوات، فيجد الإنسان نفسه في شهر رمضان المبارك يعرج الى السماء، حيث الدعاء هو حديث العبد مع الله.

إذا كانت الكتب السماوية، هي قول الله، وكلام الله مع البشر، فإن الدعاء هو كلام البشر مع الله (تبارك وتعالى)، لذا تجد أن الإنسان في هذا الشهر.. الشهر المبارك يبدأ بالتقرب من الله أكثر فأكثر، بفنون الدعاء خصوصاً عندما تقترب ليالي القدر.

إذن، العطاءات تتوالى في مثل هذا الشهر، وتجعل الإنسان أمام فرصة لممارسة رياضة روحية تمتد الى 30 يوماً، يتحرك فيها على مدى هذه الأيام، ليحدث فرقاً في شخصيته، بين يوم وآخر.

ليس المهم، اننا نحسب كم صمنا من شهر رمضان، وكم بقي؟ بل: ماذا اخذنا من شهر رمضان؟

شهر رمضان لا يذهب، بل العمر هو الذي ينتهي، شهر رمضان لا ينتهي، فهو يدور في كل عام، والناس، الحي منهم يموت، والصغير يكبر، والكبير يهرم، والهرم قد يموت، لذا يجب الاستفادة من شهر رمضان المبارك، لأن الإنسان في هذا الشهر وعندما نقول: انه صابر بمعنى: أن لديه قيمة أخلاقية، عندما يتعامل مع أهله أفضل من السابق .

أنا أتعجب ! أن البعض تتوتر أعصابهم، وعندما يصوم أحدهم يريد من الآخرين ممن حوله أن يراعوه رعاية استثنائية، أنا بذلك لا استفيد من الصوم، فمن ثمار الصوم الصبر، والإنسان إذا كان في غير الصوم لا يصبر، فيفترض به أن يكون في شهر رمضان أكثر صبراً، وأن يتحمل أكثر، وأن يُبدي أخلاقاً أفضل، وأن يسيطر على نفسه أكثر من الأشهر الأخرى، والأيام الأخرى.

الغريب أننا نجد البعض يتأزم نفسياً!! خصوصاً، أولئك الذين ابتلوا ببعض العادات كعادة شرب السكائر، وما شاكل ذلك، ومع انقطاع التدخين عنده في شهر رمضان، قد يتسبب ذلك بحالة نفسية له، هذا الكلام لا صحة له من الناحية الطبية، هي ليست إيماناً، وبالنتيجة لو كانت إرادته قوية أصلاً، لترك السكائر، وهنا الصوم لا ينعكس عليه.

قد يكون بداخل بعض الصائمين، إحساس بعدم الراحة، ونجد أن هذه الأزمات تنتظم عند هؤلاء بسبب وجود انخفاض في منسوب الصبر، فلا بد للصائم من أن يعقد العزم على أنه إذا جاء شهر رمضان، أن يجعل منه ، فرصة مناسبة لأن يستخدم قدرته، من أجل التخلص من بعض العادات، وأن يقلع عنها بشكل نهائي .

ما من عاقل، فضلاً عن كونه متديناً، لا يدرك أن التدخين، وكثيراً من الأمور ضارة للجسم، صحيح لا يقول احد - على الأقل المشهور من الفقهاء - لا يقول بحرمتها، ولكن لا يقول أحد أيضاً إنها نافعة، فشهر رمضان فرصة طيبة لهذا الإنسان لأن يترك التدخين، في مثل هذا الشهر .

وعندنا في الحديث الشريف :

(صوموا تصحوا)

أصل الصوم يحقق للإنسان مصلحة، وصحة لجسمه، ويستطيع الإنسان أن يستحث نفسه ليأخذ من الصحة، أكثر فأكثر، وهو أن يقلع عن بعض العادات .. بعض عادات الطعام، بعض عادات الشراب، بعض عادات التدخين، بعض عادات الجانب الأخلاقي، كثير من أحاديث الثرثرة والغيبة، والمزاح الذي هو أقرب الى مجالس السفهاء.

وعندما يقلع الإنسان عن مثل هذه الحالات، يجب عليه أن يعتبر شهر رمضان، بالنسبة له ولأدته، فعندما يبدأ هذا الشهر، ونبدأ به ونحن نمضي حتى نصل إلى نهايته، يفترض أن كل واحد منا يراقب نفسه، مراقبة دقيقة، ويحاول أن يحقق فرقاً نوعياً حيث يقول أحدنا لنفسه: أنا اليوم أختلفت عن أمس، وغداً يفترض عليّ أن أكون أحسن من اليوم.

هذا الفرق النوعي، مع التقائه بليالي القدر، ومع انتهائه بالعيد، يكون قد ختم شهر رمضان، ولكن مع ختام شهر رمضان المبارك، ختم دورة تربوية، ودورة أخلاقية ، ودورة فكرية، ودورة معرفية.

هذا يجب أن يُستحضر دائماً في شهر رمضان المبارك، شهر رمضان مرة أخرى شهر الصوم، والصوم ليس قضية قد تخص المسلمين، فالهندوس مثلاً: كان عندهم نوع من أنواع الصوم قد يصل إلى حد الشدة، حتى نحن لدينا بعض أنواع الصوم يسمى (صوم الوصال) وهو محرم شرعاً .. أي أن قسماً يُمعن بالصوم بشكل كثير، بحيث يُوصل يوماً بيوم آخر.

هذا النوع من الصوم لا يجوز في الإسلام، وقد تعارفت المجتمعات البشرية على أن الصوم يربي النفس، ولذلك لليهود صوم، وللنصارى صوم، وللبوذيين صوم، وللهندوس صوم، لا أقول جميع أمم العالم، ولكن غالبية أمم العالم تجنح الى عبادة الصوم، لأنها تدرك أن في

الصوم تقوية للإرادة، وإشعاراً للإنسان بأن إرادته تقوّت على عاطفته، وأن عقله تفتح أكثر من أي وقت آخر.

تمنّياتي لكل أبناء الأمة الإسلامية، أن يأخذوا من عطاء رمضان، وأن ينعكس ذلك العطاء على مزيد من الأخلاق مع من حولهم من أهليهم، وجيرانهم، والموظفين معهم في الدوائر، وليكن شهر رمضان، شهر التعبئة الأخلاقية، والتعبئة المعرفية، والتعبئة السياسية كذلك، مادام لمثل هذا الشهر هذا العطاء.

والسلام عليكم، ورحمة الله وبركاته.

العلاقة بين الآباء والأبناء

قال الله تعالى:

((شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان))

صحيح أن في هذه الآية إشارة إلى نزول القرآن في رمضان، ولكن الروايات المتضاربة لدى أبناء المدرستين - السنة والشيعة - تؤكد على أن الكتب السماوية (القرآن الكريم، التوراة، الإنجيل، صحف إبراهيم)، كلها نزلت في شهر رمضان، حتى أن بعض الروايات تشير إلى الأيام التي نزلت فيها، لكن القرآن الكريم لعظمته ولخاتمته برز كمصدق حيّ للكتاب السماوي الذي نزل إلى الأرض، نزل على قلب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وعندما نتحدث عن القرآن الكريم، وكيف يستمد شهر رمضان المبارك هذه العظمة من خلال اقترانه بالقرآن الكريم:

((شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن)).

وهنا لابد أن نشير إلى كيفية وصف القرآن نفسه:

((يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى وموعظة للمؤمنين))

القرآن الكريم يصف نفسه بهذه الأوصاف الأربعة (موعظة من ربكم)، (شفاء لما في الصدور)، (وهدى) (وموعظة للمؤمنين)...

أن يكون موعظة، أي: إنه يقرع العقل بالأدلة، ويلفت الانتباه إلى أن الذين يمتلكون أفكاراً معينة لابد من أن يراجعوا أفكارهم، ويجعل جدلية العقل وحواريته مقرونتين بالدليل.

وعندما يقول: (موعظة) يعني أن هناك فكرة، ومفهوماً مقروناً بحالة من الجدية فوق العادة، (موعظة من ربكم)، وهذا مدعاة لأن يتحلى الإنسان دائماً بعقلية المراجعة لما يحمل من أفكار، ومرة أخرى يحاول أن يراجعها وما يثبت أنها صحيحة يثبت عليها، وما يثبت أنها خطأ يتخلى عنها، وهكذا جعل القرآن الكريم قضية العقل أو المخاطب الأول في داخله:

((يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم))

هذه الموعظة تقرع العقل، وتنتقل إلى القلب.

((شفاء لما في الصدور))

العرب كانت تقول: أكنّ لك في صدري محبة، يقصدون القلب، والقرآن الكريم استعار شفاء لما في الصدور، أي: شفاء لما في القلوب.. القلب يمرض، لكن مرض القلب يختلف عن

مرض البدن؛ فمرض البدن يحتاج تداخلاً باطنياً، أو جراحياً، أما مرض القلب فيحتاج إلى ممارسات وإجراءات أخرى تختلف عن الطريقة البدنية، لذلك الشيء الوحيد الذي يتولى عملية شفاء القلب هو القرآن الكريم:

((شفاء لما في الصدور))

عندما يعرض الإنسان قلبه على القرآن الكريم بشكل جدي فإنه يبدأ ببناء، أو إعادة بناء لقلبه بطريقة صحيحة.

كيف يتحرك القلب باتجاه الظواهر الاجتماعية التي من حولنا، وكيف تتخلل المكون القلبي في داخلنا عناصر سيئة وفاسدة، وكيف نعدلها؟

مثلاً: ظواهر الحسد، والحقد، وسوء الظن التي تعترى الإنسان من داخله، والوهن والخوف غير المبررين، والجبن، والبخل، وما أشبه ذلك كثير من الأمور التي تصير في داخل القلب، ويشعر الإنسان في نفسه أنه ضعيف.

القوة في القلب، والضعف في القلب، البدن ليس إلا مظهراً خارجياً للشخصية، والشخصية الحقيقية تكمن هناك، والقلب سريع التبدل، وقيل: إنما سُمي القلب قلباً لكثرة تقلبه، حيث يتقلب بسرعة.

الإنسان يعرض قلبه على كتاب الله (القرآن الكريم)، ويأخذ منه ما يُشفي نفسه؛ فيحاول أن يراجع نفسه... كيف يستبدل سوء الظن بحسن الظن، وكيف يستبدل عملية الحسد، ويتخلص منها، وكيف يتخلص من كثير من الخصال السيئة التي علقت بقلبه ويستبدلها بخصال، وصفات حميدة.

حيث يعرض الإنسان نفسه على كتاب الله، بالتلاوة الواعية، والتدبر في القرآن الكريم، والتفكير في كل قصة، وفي كل مثل، وفي كل مفهوم، وهذا فن من أصعب الفنون.

إن الإنسان عندما يقرأ الآية فليس المهم السرعة في القراءة، والسرعة في ختم القرآن، إنما المهم أن يستنطق القرآن كما يقول الإمام علي (عليه السلام):

((ذلك القرآن فاستنطقوه))

تسأله يجيبك، فلذلك يعرض الإنسان قلبه على القرآن الكريم، حتى يبدأ المرحلة الثانية بعد انتهائه من العقل، وهي مرحلة الشفاء لما في الصدور.

ثم يعرض للمرحلة الثالثة: وهي (هدى).

حيث يمشي على الطريق الصحيح إذا شفي عقله من المفاهيم الخاطئة، والمعتقدات الفاسدة، وإذا ما شفي قلبه من الأمراض، فإنه يهتدي إلى الطريق، وإذا اهتدى إلى طريق الهداية،

ومشى عليه يدخل المرحلة الرابعة: وهي ((هدى ورحمة للمؤمنين))

إذن نرى القرآن الكريم بدأ بخطاب: ((يا أيها الناس))

ومرّ بأربع مراحل: مراحل بناء الشخصية، والفرد، والمجموعة، ثم انتهى بالمؤمنين، أي: انتهى من ضفة الناس، وذهب إلى ضفة المؤمنين، وهذه الحالة الطبيعية.

لنأخذ أنموذجاً، بل نأخذ عدة نماذج من القرآن، ونقارن أنفسنا بالأنموذج القرآني، هل نحن نتعامل على الطريقة القرآنية، وكيف نتعامل مع شبابنا وأولادنا وبناتنا؟

القرآن الكريم يطرح أنموذجاً بل عدة نماذج للشباب، حيث يطرح لنا أنموذج:

((نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى)).

هذا المثال ورد بقصة في سورة الكهف عن مجموعة من الشباب، وكيف أن هؤلاء كانوا في مدينة من مدن (طرطوس)، حيث وقفوا موقفاً بطولياً رائعاً من (أوقيانوس)، في ذلك الوقت، واستطاعوا أن يثبتوا موقفاً مبدئياً، وكيف تفاعلت معهم آيات الله (تبارك وتعالى)، وكيف حوّلهم الله تعالى إلى آية، حيث بقوا في الكهف، ومرت عليهم 300 سنة، وازدادوا تسعاً كما تقول القصة.

بعد ذلك خرجوا إلى مسرح الحياة من جديد، حيث جمعوا بين السابق، وبين الحاضر، ودخلوا مرحلة جديدة بفضل إيمانهم . وهنا قدم لنا القرآن الكريم أنموذجاً لمجموعة من الشباب أصحاب الفهم.

قدم لنا القرآن كذلك أنموذج ابنة نبي الله شُعيب الشابة:

((وجاءت إحداهما تمشي على استحياء قالت يا أبتِ استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين))

أبوها نبي، ولا تجد ثمة تناقضاً بين أنها ابنة شابة، وأبوها نبي، ولكن أن تقول النصيحة التي تعتقد بها، هنا يقدم لنا أنموذج الشاب الفرد الواحد:

((يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى))

يقول أبو الانبياء إبراهيم (عليه وعلى نبينا وآله أفضل الصلاة والسلام)، ذلك لابنه إسماعيل (عليه السلام)، وبكلمة حانية، واسماعيل يرد على إبراهيم بكلمة حانية أيضاً:

((يا أبتى افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين))

وهنا لم يقل يانبي الله، بل يا أبتى، هذه الحواريات من مجموعها، وحواريات أخرى كقصة يوسف (عليه السلام)، وكثير من الآيات القرآنية الكريمة، تجعلنا أمام حقيقة أن الآباء والأمهات النموذجيين يتعاملون مع أبنائهم وبناتهم بطريقة تختلف عن الطريقة التقليدية.

نحن الآن في شهر رمضان المبارك، وأمام كتاب الله (تبارك وتعالى)، فكيف نتعامل؟ نصيحتي: أن على كل أب، وكل أم أن يستثمروا أوقاتهم، فشهر رمضان المبارك لا يُعد فقط للأسرة (سفرة)، ملونة من الطعام، على الرغم من أن هذا شيء جيد ومبارك، ولكن يجب أيضاً أن يُعد (سفرة) معنوية، فكما يتناولون الطعام، لا بد من أن يفكروا في أن يتناولوا أحاديث من شأنها أن تقوّم الأسرة، حيث تتعاطى مع أفرادها كل بحسب جنسه، وعمره ومع الجميع.

عندما نتعامل مع الشاب يجب أن ندرك هذه الحقيقة وهي أن الشاب الذي بين أيدينا حلت في شخصيته مجموعة من التحولات الأساسية كالتحول الفكري والعقلي، فلم يُعد عقله صغيراً كما كان صبيّاً، لذلك تجد الشاب في مرحلة المراهقة يبدأ بإثارة أسئلة لها علاقة بإعادة النظر بمسلماته السابقة، حيث يعيد النظر بالعقيدة، وبالمسلمات العرفية، ويعيد النظر بكثير من الالتزامات.

هذه من جانب ظاهرة صحة؛ لأن عقله كبير ولم يُعد عقلاً صغيراً كما كان سابقاً، فعندما كان عقله صغيراً كان يتلقى تلقياً سلبياً، ماذا تقول... يصدق وبدون دليل، أما عندما يدخل في مرحلة المراهقة، ويكبر يكون شعاره: لماذا لا أفنتع.... لماذا؟ ومن يقول إن هذا موجود؟

هذا مدعاة لأن يجعل الأب والأم أمام مسؤولية، مسؤولية أن ابنهم تحوّل إلى مرحلة جديدة، وهذه من نعم الله عليه حيث إن عقله بدأ يكبر، ومن ثم يجب أن يجيبوه، وليس مجبراً أن يكون الأب مختصاً بكل شيء، أو أن تكون الأم مختصة بكل شيء، لكنهما مجبران على أن يدبرا له كل ما يحتاج.

عندما يحتاج إلى كتاب يجلبان له كتاباً، وعندما يحتاج إلى لقاء إنسان عالم يأخذانه إلى عالم، أو مفكر، أو مُربٍّ، فمثلما يحتاج المراهق إلى ملابس وطعام، فهو يحتاج إلى إجابة على أسئلة ضاغطة عليه، ويجب أن يوفر له من يجيب على هذه الأسئلة.

لا ينبغي أن نقع بما وقع به (كرندر) والذي يعتبر المراهقة مرحلة ضياع، أو ما وقع به (سيجموند فرويد) والذي فسر المراهقة بأنها عملية تمرد، هكذا وراثنا ثقافة تقول: إن الشاب المراهق فرد ضائع، ومع الأسف الشديد اقترنت هذه الثقافة بالأكاديميات الحديثة.

لا نعتقد ذلك، فبالعكس الشاب عندما يدخل مرحلة المراهقة فإن الله (تبارك وتعالى) يشرفه، ويجعله مكلفاً، أي: صار يعتمد على نفسه، حيث يستطيع أولاً: أن يؤدي الفرائض، وثانياً: يستطيع أن يبرم عقوداً، وأن يتزوج، وأن يتحمل مسؤولية ما، لكنه بلا شك بحاجة إلى المواكبة.

وهذه هي الطفرة الأولى التي تحصل في عملية المراهقة، أما الطفرة الثانية، فنجد أن المراهق قد كبرت نفسيته، فسابقاً كان لا يملك الثقة الكافية بنفسه بأنه يستطيع أن يكون فرداً منفصلاً عن العائلة؛ لأنه متكل عليها دائماً، وعندما يدخل مرحلة المراهقة يشعر أن الوقت حان لأن يعتمد على نفسه؛ لأن نفسه أصبحت كبيرة، لذلك يشعر بالاستقلالية ونجد أنه في بعض الأحيان يتضايق إذا سأله أهله مثلاً: إلى أين تذهب، وبمن تلتقي، ولماذا تتأخر؟ في داخل البيت يريد أن يستقل بغرفة، ويريد أن يستقل بميزانية، إلخ..

وهذا دليل على أن نفسه كبرت، وتريد أن تستقل، - طبعاً - تحف حول هذه القضية مخاطر سأشير لها.

الطفرة الثالثة، وهي طفرة البدن حيث يشعر المراهق أن بدنه في مرحلة الشباب قد أصبح قوياً، وعندما نضيفها إلى الطفرتين العقلية، والنفسية قد يصبح عنده اعتداد بالنفس أكثر من اللازم؛ لذلك يشعر بداخله أنه أصبح أقوى من أبيه، والبنت أقوى من أمها حيث هي شابة تعتمد على نفسها، وهو شاب يعتمد على نفسه، إلى هنا هذا إحساس صحيح، لكنه محفوف ببعض المخاطر، ويجب أن نعالجها.

الطفرة الرابعة، هي غريزة الشباب، ربما قبل أن يدخل بمرحلة الشباب لم يكن يفهم ما تعني الغريزة الجنسية، ولا يفهم ما يعني الجنس، فهو فاقد للجنس ولا يتصوره، لكنه يسمع آثاره، ومشاكله، ولا يعرف معناه.

هذه الطفرات المتنوعة يُراد لها معالجة، ونصيحتي للشباب أنه وإن صارت عنده طفرة عقلية، لكن يجب أن يعرف كيف يتزود بالفكر الصحيح، وصحيح صارت عنده طفرة نفسية، لكن أيضاً يجب أن يتزود بحالة من الثقة من دون أن تتحول الثقة إلى اعتداد يتجاوز الحد الطبيعي، وصحيح أنه صارت عنده طفرة جنسية لكنه يجب أن يعرف أيضاً أنه ما لم يتعامل مع هذه الغريزة بطريقة صحيحة، وبجدولة صحيحة ستجرّه إلى مشاكل وخيمة حالياً، ولاحقاً. من هنا نصيحتي للآباء وللأمهات بأن يُبرموا أربع علاقات مع أولادهم:

1- العلاقة التكوينية: إن هذا (ولدك أو بنتك)، امتدادك التكويني، وهذه العلاقة التكوينية كما هي العلاقة الحيوانية، فالحيوانات أيضاً بالطفرة تنساق خلف أبنائها باعتبارها امتدادات تكوينية؛ لذلك يجب على الشخص أن ينمّي في داخله أن هذا ابنك التكويني، بغضّ النظر عن أنه ملتزم أو غير ملتزم، أنت (الأب أو الأم) ملتزم أو غير ملتزم هذا بحث آخر.

هذه العلاقة التكوينية هي علاقة والد وولد، ووالدة وولد، وليس بالضرورة أن يكون أباً، فالأب بمعنى مربٍ، والأم بمعنى مربية، أما الوالد هو من أنجب، والقرآن الكريم يوصي بالوالدين حتى إذا لم يكونا أبوين، بل حتى إذا كانا مشركين:

((وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً))

أي: إنك أيها الابن أو البنت أنتما يجب أن تحسنا إليهما.

((وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً))

2- العلاقة التربوية الأبوية (علاقة الصداقة): هذه العلاقة علاقة تربوية في البداية، أي: يتحول الوالد إلى مربٍ، ولا يكفي بأن ابنه معه في البيت فيمّوله بالأكل، بل يجب أن يموله بالمفاهيم، ويتعامل معه بعمره، فهذا الولد عندما يرى نفسه كبر بالبيت ولا أحد يعترف به، حيث لازالوا يتعاملون معه على أنه فرد صغير، يخرج هذا الشاب إلى الشارع. في الشارع الشباب من أقرانه يتعاملون معه بعمره، وإذا كان ابن 15 سنة يتعامل معه بـ 15 سنة فهو يأخذ احترامه وتقديره، لكنه عندما يرجع إلى البيت يعاني من أن أهله لازالوا يتعاملون معه كطفل!!.

الشباب هنا عندما يشعر أن هناك جوين يكون جو الشارع أقرب إليه، فيبدأ بمقارنة الخارج مع البيت، ويقارن الشباب (أصدقاءه)، بعائلته بدلاً من أن يقارن عائلته مع الشباب، وهذه القضية خطيرة جداً، والشباب هنا يكون هو وحظه فقد يكون أقرانه جيدين، وقد يكونون غير جيدين.

من هنا تبدأ الانعطافات عند كثير من الشباب؛ بسبب حرمانهم من الاحترام الكافي، والحوار الكافي، ومن الاعتراف بشخصياتهم، على الآباء والأمهات أن يثقوا بأنفسهم بأنهم عندما يعطون لأولادهم وبناتهم احتراماً فذلك لا يخل إطلاقاً بقضية الأدب.

إذن العلاقة الثانية علاقة تربوية، حيث يرى الأب نفسه تحول من كونه والدًا في عملية فلسفية حيوانية، إلى عملية تربوية مفاهيمية وصار أباً، ولذلك كل واحد منا لديه أكثر من أب، لكن لديه والد واحد، ووالدة واحدة، لذلك يمكن أن نقول: أبؤنا، وأمهاتنا، فالمعلمة بالمدرسة هي أمنا، والخالة، والعمة، والجيران، وغيرهن أمهاتنا.

لكن لكل إنسان والدة واحدة، وكذلك الآباء، والمعلمون، والأصدقاء، والعلماء، والمفكرون، والأساتذة هؤلاء ساهموا في تربيّتنا فهم أبؤنا.

إذن الوالد يتحول من كونه والدًا إلى أب، ويبدأ بإبرم علاقة تأثير وحوار، فالعلاقة صارت علاقة صداقة، أي: إن ابنك صار صديقك، فانسَ أنك دخلت العقد الخامس، أو السادس، أو السابع، وتواضع وتعامل معه بعمره، وفي الحديث الشريف:

(من كان له صبي فليتصاب له)

أنت لا تتوقع من الصبي أن يسترجل ويصير رجلاً، وإنما الكبير ينزل إلى مستوى طفله، ويتصابى له، كما يجب أن يعطي المراهق حصة كافية من الحوار، حيث يتحاورون مع بعضهم البعض، ويبادر الأب بقوله: عندما كنت بعمرك، كانت مشاكلتي كذا، وكانت عندي طموحات كذا، فشلت في هذه، ونجحت في تلك، استفدت من تجربتي، وأنا أيضاً سأنتفح عليك، وكذا يجب أن نشجّع الولد على أن لا يشعر بحالة قمع، واستهجان، واحتقار عندما يطرح أي نقص بالبيت؛ لأنه إذا لم يطرح النقص بالبيت سيطرحه خارجاً، وإذا لم يأخذ الجواب الصحيح من البيت فإنه سيأخذ جواباً خطأً من الخارج.

فبدلاً من أن ندفع بالأولاد، والشباب إلى الخارج المنزلي، دعونا - مع افتراض أن المنزل يعيش منظومة أخلاقية صحيحة نبرم علاقة صداقة، وحوار مفتوح. أنت أيها (المراهق الشاب) تسأل وتحاور أباك وأمك، وهما يجيبانك على كل شيء، هذه العملية يجب أن تستمر.

3- علاقة الاستعطف: في هذه العلاقة يتحول الأب إلى ابن، والأم إلى بنت، ويصير الولد هو الأب، والبنت هي الأم، كيف؟! الإنسان عندما يتقدم بالعمر إلى أن يصل مرحلة الكهولة، بعد ذلك تبدأ قواه بالضعف: **((ومن نَعْمَرَه نَنكسَه في الخلق))**

على العكس من ذلك الشاب إذ إنه بمرور الزمن يقوى ويقوى، ويصل إلى أن يصير الشاب هو الأب، والأم من كبر العمر، يُصابان بالضعف، ويحتاجان إلى أن يتحملهما أحد، فعلياً عندها يبدأ الشاب بطرح نمطية أبوية مع أمه وأبيه، والقرآن الكريم يقول: **((إما يبلغنَّ عندك الكبر))**

في هذه الحالة يحتاج الأب والأم إلى الرعاية أكثر من أي وقت آخر، فعندما يمشي الإنسان في هذه المنظومة، منظومة أن هذا ابني بالتكوين وأنا أربيته، وأنا صديقه، وهو أبي للمستقبل، يجد الإنسان نفسه في حالة حوار، لذلك فلتعقب أجواء رمضان المبارك بين الأسرة، ولنعطِ وقتاً لتحريك هذه العلاقات.

سيجد الإنسان في هذه العلاقات لذة حتى عند الاختلاف، فلا تخافوا من أبنائكم عندما يختلفون معكم، فليختلف، وعندما تجيب قد يقتنع، وقد لا يقتنع ابنك، فهو لن يكرهك، وإذا رأى أن رأيه مخالف لرأيك، لن يكرهك ابنك عندما يرى جوابك خطأ، أبداً، إنما -لا سمح الله- قد يتسرب إلى الكره، وهذا حرام وغير جيد، عندما يراك تقمعه، أو تتغلق عنه.

أما عندما تتفتح عليه، فعندما تعرف قتل أعرف، وعندما لا تعرف قتل: لا أعرف، وهذه أحسن طريقة للتربية، وكما قلت: ليس مطلوباً من الأب، أو الأم معرفة كل شيء. يجب أن نربي أولادنا على القيم الصادقة، والصحيحة، والصريحة.

عندما نعرف نجيب، وعندما لا نعرف نسأل من يعرف، ويمكن أن نستعين بأحد ما، وهكذا إذا دارت عجلة العائلة في مدار الحوار المفتوح، والنقاش المفتوح، سيجد أفراد الأسرة حصة من الحنان، والاحترام، والتقدير في داخل البيت، وهذا الشعور لا يُعوّض في خارج البيت.

والإنسان مثلاً يحتاج إلى أكل في البيت، يحتاج إلى حنان، واحترام، وحب، وتقدير، وإذا لم يأخذ هذه الحصة سيتعطش للاحترام من الخارج، وكثير من الذين يتصيدون بالشباب سيعطونه احتراماً وهمياً، وقد تكون هذه خطوة لجره بعد ذلك حتى يسقط في أتون الانحرافات.

وهنا سيقارن الشاب ويقول: إن أبي لا يعطيني هكذا احترام، وإخوتي في البيت لا يحترموني، لكن هذا يحترمني، في البيت لا يعترفون بأني صرت كبيراً، وهذا يعترف بأني أصبحت كبيراً. أوصي الآباء، والأمهات بأن يضعوا في حسابهم أن الاحترام جزء من التمويل للشخصية، وليس تمويلاً بالمال، ولا بالأكل، بل تمويل بالعاطفة، والفكر.

إن العائلة الكريمة هي التي تجمعها منظومة فكرية، لسنا عائلة واحدة إذا أكلنا سوياً فقط، هذه ليست العائلة الواحدة، العائلة الواحدة هي التي يكون بينها مشترك بيّتي، ومشارك فكري؛ بسبب غياب هذه المشتركات اعتلت العائلة ببعض الأمراض، بحيث أصبح الآن كل واحد يفكر بنفسه بعيداً عن أخيه، بينما كانت ولا زالت هذه القيم -والحمد لله- في صفوف العراقيين،

وأنا شاهد عليها، فلا تزال عندهم قيم، فالإنسان لا يفكر بأفراد عائلته فحسب، بل يفكر بجاره أيضاً، وهذه يجب أن نحافظ عليها.

القيم التي جاءتنا الآن جديدة (استرخاص القتل، وهدر الدم)، حيث البعض يعتبرها رجولة، هذه ليست رجولة، هذه خروج عن الطبع البشري، فأن تقتل، أو تفكر أن تقتل، ماذا يعني؟ يعني: هدر الدم، وهدر الكرامة، والله (تبارك وتعالى)، شَرَّف الوجود بالإنسان، وجعل هذا الإنسان سيد الوجود، لكن يأتي البعض، ويعتدي عليه؟! الإنسان هو الإنسان بغض النظر عن دينه، ومذهبه، وقوميته، وهو محترم عند الله (تبارك وتعالى):

((وَكَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ))

هذه القيم التي سادت، فكيف نستبدل قيماً بقيم أخرى؟ الآن جاءت ثقافة الشك حيث الواحد يشك بالآخر، ومن كلمة واحدة يبذل انطباعه!! كيف نستبدل ثقافة الشك بثقافة الثقة؟ وكيف نستبدل ثقافة القطيعة بثقافة الصلة؟

للأسف نرى أن بعض الأشخاص يأتون من عوائل الأب فيها يخاصم أولاده، أو أن الأخ يخاصم إخوته، أو العائلة تخاصم الأقارب من نفس العشيرة، أو الجار يخاصم جاره، حبس الخصومة قد يصل إلى عمق العلاقة الزوجية؛ فيبدأ الزوج بمخاصمة زوجته، والزوجة تبدأ بمخاصمة زوجها، ومعنى هذا أن الحياة تتحول إلى جحيم.

كم هو الفرق بين الإنسان الذي يجلس في بيت يرى فيه أمه وأباه وهما يتبادلان احترامات، وثقة، وكذا بين جميع أفراد العائلة، فيشعر أنه مثلما يأخذ زاداً مادياً من الطعام، يأخذ زاداً معنوياً من المحبة، والفكر، وهذه المسألة في غاية الأهمية؛ لذا يجب أن نشيع في أجواء العوائل لغة الحب، ولغة القرآن الكريم، ويجب أن نشيع هذه الثقافة؛ فالإنسان يكون معذوراً في أنه لم يكن يملك مالاً كافياً، لكنه ليس معذوراً في أن يبخل بحبه؛ لأنه لا يحتاج مالاً.

الإنسان عندما ينفق حباً، لا ينفق مالاً، وإذا لم ينفق مالاً فقد يكون معذوراً، لكنه يستطيع أن يقول كلمة الحب، وهذه يحتاجها الولد، وتحتاجها الأم، ويحتاجها الصغير، ويحتاجها الكبير.

الشباب أيضاً، يجب أن يضعوا في حساباتهم كيف يتعاملون مع آبائهم، وأمهاتهم، حيث يجب أن يتعاملوا بمستوى عالٍ من الروحية الصحيحة، فهذان أبوه وأمه، والآداب التي تأدبنا عليها أن الإنسان لا ينبغي أن يتجاوز على أبيه، وأمه، وأن لا تغلو أصوات الأولاد فوق أصوات آبائهم وأمهاتهم، وأن لا يزججهم، أو يؤذوهم، وأن يتعاملوا معهم بأخلاقية عالية.

كما أوصي الشباب بأن يعتبروا آباءهم وأمهاتهم سر وجودهم، حيث إنهم الأصل التكويني، والأبناء هم الفرع التكويني، وهذا الفرع جاء من ذلك الأصل. هذا من جانب، ومن جانب آخر من ينظر إلى أمه، وأبيه يشعر أنهما أنفقا عليه، وصرفا عليه وخصوصاً الأم؛ لذلك أوصى القرآن الكريم بالأم أكثر مما أوصى بالأب، وفي الحديث الشريف:

قال: أوصني يا رسول الله

قال: أمك

قال: ثم من؟

قال: أمك

قال ثم من؟

قال: أمك

ثم بالمرّة الرابعة قال:

أباك.

إذن يجب على الشاب أن يهتم بأمه وأبيه اهتماماً كبيراً، و علاقة الأبناء مع آبائهم يجب أن تقوم على أسس قرآنية، والإنسان حتى إذا وجد في أمه، أو أبيه اشتهاً معيناً يجب أن يُحسن الأدب بطريقة النطق، وأن يحاول النصح لهما بأسلوب غير مباشر، لا يخدش مشاعرهما، فمهما يكن من شيء فهما أبواه.

على الأسرة كذلك أن تتكامل ليس فقط بين هاتين الجهتين الأم والأب إنما أعول على الشباب؛ لأنهم رجال المستقبل، فليس أن يتحملوا مسؤولية بناء أنفسهم فقط، بل أن يتحملوا أيضاً طريقة التعامل مع آبائهم، وأمهاتهم، وأن يتحملوا مسؤولية بناء أسرهم. كل واحد من هؤلاء الشباب يجب أن يفكر بكونه أنموذجاً لإخوته أمام أمه، وأبيه وخصوصاً الابن الكبير، فالابن الكبير له مكانة خاصة، هذا الابن يمثل حالة قدوة سواء قبلنا أم رفضنا؛ لذلك جاء في الحديث الشريف:

(للولد الكبير على إخوانه ما للأب على أبنائه)

أي إنه يحتل موقعاً أبوياً؛ فيجب أن يحسب لكل شيء حساباً، فهو عندما يطبق هذه التعاليم، ويُحسن التعامل مع أمه وأبيه، يكون مثلاً وأنموذجاً حياً لبقية إخوته، بينما عندما يتمرد، ويسيء فإن إخوته، وأخواته الأصغر منه قد يتعلمون منه هذا السلوك.

شهر رمضان المبارك من دون شك شهر يعطي الإنسان المؤمن قوة في العقل، والبصيرة، ويعطيه أيضاً قوة في الإرادة، ويعطيه قوة نفسية في أن الشيء الذي يقتنع به يستطيع أن يجسده، ودورة شهر رمضان بـ (30 يوم) كافية لأن تجعل الإنسان يصنع عرفاً جديداً، عُرف التداول، والحواريات، والجلوس مع بعضنا البعض حتى مع تفاوت الثقافات، وتفاوت العمر، وربما تمتد هذه الحواريات إلى ما بعد شهر رمضان المبارك، وعندئذ يتحول الصوم من أداء، إلى إقامة كما تتحول الصلاة من أداء إلى إقامة، بمعنى أن شهر رمضان ينتهي ولا تنتهي آثاره.